المعري والموسيقى

قد يستغرب هذا العنوان وحق للسامع ان يستغرب فابو العلاء شاعر وابو العلاء فيلسوف حكيم وابو العلاء زاهد وابو العلاء لغوي ونحوي وصرفي .

ولكن ماحيلتي وانا امرؤ ولع بالموسيقى وايقن ان الطبيعة البشرية لاغنى لها عنها الا اذا كانت شوهاء او بتراء وأبو العلاء ذو طبيعة رقيقة في الطبائع وذو قلب كريم بين القلوب فاذا كان قد اخذ نفسه بالامتناع عن طيبات الحياة فانه لم يفعل ذلك لنقص في شعوره بما امتنع عنه ولا لخلل في جسمه يباعد بينه وبين تفهم تلك الطيبات وانما امتنع عنها وهو بها شاعر واي شاعر ولها مدرك واي مدرك . وما اعتقد ان ابا نواس ذكر الخمر ووصفها باكثر من ذكر ووصف أبي العلاء لها وان

اختلفت بينها الغاية واساليب العرض وما ارى صريع الغواني وعمر بن ابي ربيعة ألما بغوامض غرائز النساء واخلاقهن كما ألم أبو العلاء بها وبتحليلها وان اختلفت بينهم الاساليب والغايات . فابو العلاء كان عالما بما اتى من زهد وكان عالما جدا بما ترك من طيبات حتى نرى ان شعره ونثره قد فاضا بتحليل مانرك ولم يلما الا قليلا بتحليل ما آثر لنفسه من طرائق العيش فلم يصف ولم يحلل اثر المطعم الجشب واللباس الخشن والعزلة القاسية في نفسه بمثل ماحلل اثر الخمر والمرأة والمال والمجد .

فهذا بعض ماجعاني ابحث عن الموسيقي في حياة هذا الانسان العظيم وشيء آخر هو ادعى لان ابحث عن اثر الموسيقى في نفس المعري خاصة وهو انه رحمه الله كان بصيرا انقطعت بينه وبين الدنيا الاسباب الا بسبب من اذنه ولمسه فكان بالحري ان تراعي هذه الاذن المرهفة كل نأمة من حوله وكل هيعة . وهو لم ينقطع عن خوض ماكان يخوض فيه جميع الناس من مجتمعات عامة وخاصة الا بعد ان شارف الاربعين من عمره فهو اذن قبل ذلك قد استمع الى الموسيقى ساعيا لسماعها او غير ساع لسمعها في الافراح وسمعها في المآدب العامة وسمعها على افواه الحداة في القوافل التي كانت تحمله بين الشام والعراق وسمعها من صديق يدمدم او جار يترنم على الاقل .

ولم يمهاني المعري ان اسأل عن موسيقاه الرسوم والاطلال فهو قد اثبت تذوقه لها وتحليله لآثارها واطلاعه على ضروبها والحانها في شتى اشعاره ومؤلفاته .

اما اطلاعه على ضروب والحان موسيقى عصره فقد انبأنا به كتاب الفصول والغايات بتفصيل لانجده عند مؤلفي ذلك العصر حتى المغنين منهم والملحنين فقد جاء في الصحيفة الثامنة بعد الثمانين من ذلك المؤلف بعد ذكر شيء عما ينطق به العود من طرائق الغناء مايلي :

« والطرائق الثماني . الثقيل الاول وايقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن (مف) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة وهي نقرات ثقال وانت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف اوسطها الساكن والسبب حرفان فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب مثل قولك صخر بحر دهر فعلى هذا يجري الثقيل الأول .

وخفيف الثقيل الاول وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا كقولك مفعولن بلا فصل والثقيل الثاني وقد اختلفوا في ايقاعه فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات نقرتان متساويتان ممسكتان وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاخفاف محثوثات ولا ثقال ممسكات على مثال مفعو مفعو ومنهم من يوقعه اربع نقرات ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال مفعولاتن .

وخفيف الثقيل الثاني وحقيقته اسرع حثا منه وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو الخفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان .

والرمل هو نقرة ثقيلة واثنتان محثوثتان (لان مفعو) ومثله في الكلام (ملّ وصلي صدّ عني

وخفيف الرمل . وخفيف الرمل جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع فاما الرمل فلم يجيء خفيفه على عدد نقراته وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال فعلن فعلن

والهزج . وهو على نقرة نقرة.واحدةثقيلة وأخرى خفيفة على وزن (قال لي). وخفيف الهزج . وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثاً منه . . » .

ولسنا نعلم ما كانت تضم في هذا الباب المؤلفات الكثيرة التي فقدت لأبي العلاء على أن فيما انتقل لايدينا بعض الغنية عن افتقاد ماضاع فشعرهُ ونثرهُ يؤكدان لنا أن المعري لم يكتف بان يلم بطرق الالحان وضروبها بل هو يتذوقها ويحلل آثارها في نفوس السامعين . استمع له في لزومياته وهو ينعى التكبر على الانسان فيقول:

ما كبره وثقيل اللحن يمنعه من سرعة الفهم ترسيل وتمديد

فالمعري لايكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرمل والهزج وغيرها بل أنه ليعرف طبائع هذه الضروب معرفة من تخطت هذه الالحان سمعه الى قلبه وشعوره . فهو قد وعي طبيعة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا اللحن أن لايكون سريعاً الى الفهم لطول الترسل والتمديد فيه .

ولا ابالغ إذا قلت لكم إن واحدا من المئة من المغنين حتى الحذاق منهم لا يعرفون تأثير صفات الغناء — التي منها الاسترسال . والتمديد . ولا باس من أن نذكر الان بعض صفات الغناء لتروا من ذلك ان أبا العلاء كان في هذا الفن من العلماء فمنها الاجتهاد . والاستهلال . والاسترسال . والمناضلة . والمخاتلة . والتغريد والتفخيم . والترخيم . والمراسلة . والمطاولة . والترجيع . والتفريع . والتقدير . والتوطئة. والاتفاق . وتقدير الانفاس . والاضعاف والتذليل . والتدلل . والاتصال والتحرش . و لابتداع الى غير ذلك مما لايعرفه الا الراسخون فيهذا الفن والمعري لا يكتفي بذلك أيضاً بل انه يطلعك على خبرته بعلاقات الالحان بعضها ببعض وبانه خبير بقواعد الانتقال من لحن الى لحن حتى يأتي على آخرها ففي رسالة الغفران يقول على لسان ابن القارح لاحدى قيان الجنة (اعملي قول ابي أمامة) .

أمن آل مية رائح او مغتد عجلان ذا زاد وغير مزود

ثقيلا أول (فتصنعه فتجيء به مطربا وفي اعضاء السامع متسربا ولو نحت صنم من احجار ثم سمع ذلك الصوت — لرقص فيقول (هلم خفيف الثقيل الاول) فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض لأقران ما ترنم به مريض فاذا اجادته قال (عليك بالثقيل الثاني) فتأتي به فاذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب

فصيري الى خفيف الثقيل الثاني فانك لمجيدة محسنة ثم يقترح عليها ا ـمل وخفيفه وأخاه الهزج فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقة هلل وكبر واطال حمد ربه واعتبر ا . هـ . فمن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً باصول الخروج من لحن الى لحن اذ ان بين الانغام توافقاً وتنافرا وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغمات بل أن هناك نغمات لاتأتلف مع غيرهـا البتة ونرى الجهـلاء اليوم لفن الموسيقى يقترحون على مغن اغنية من مقام (السيكاه) بينما يكون المغنى آخذاً بانشاد اغنية من الحجاز كار مثلا ففي مثل هذا الحال لايعلم الا الله مقدار مايصيب المغني من التأثر التنافري الواقع بين النغمتين وهذا مالم يغفل عنه أبو العلاء كما ظهر لنا في الخبر السابق وقد جاء في رسائل اخوان الصفا ان الخروج من لحن الى لحن والانتقال منه ليس له طريق الا على احد الوجهين اما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدسـاتين والاوتار بالحذق والارخاء ويبتدأ ويستأنف لحنا آخر ويترك الامر لحاله ويخرج من ذلك اللحن الى لحن قريب منه مشاكل له — وهو ان ينتقل من الثقيل الى خفيفه او من الخفيف الى ثقيله او الى ماقارب منه .

اما تحليله لاثر الموسيقى في النفس فظاهر في شعره ونثره على صورة تدعونا الى ان نقف عند هذا التحليل متأنين غير مستعجلين فابو العلاء في لزومياته وفي فصوله وغاياته وفي غير ذلك من مؤلفاته يدعو الى اجتناب اللهو والتمتع بمفـاتن الحيـاة واجتناب كل مايعين على ذلك وفي جملتها الموسيقى فهو اذن — يدعو الى اجتنابها لانها كالخمر والنساء من افتن مفاتن الحياة ولان لها سحرا لايمتنع منه اصعب القلوب ولا اشد الاعصـاب ولأنها لاتملاء الحياة آمالا واحلاما وهو لايرى بحكم زهده وتشاؤمه أن يسمح للحياة ان تلعب بنابهذه الامال والاحلام التي تزينها لنا بالموسيقى أو بالخمر او بالنساء او بها جميعا .

ولكن الموسيقي لذة منزهة لاتخلب اللب كما تفعل الخمر ولاتثلم الشرف او تنغص العيش كما يحتمل أن تفعل النساء وانما هي لذة منزهة كما قلت تسمو بالروح ولاتهيج الجسد الا اذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر او بقرب الكواعب الغر .

فالمعري من ذلك بين نارين النار الاولى هي أنه ليؤثر الموسيقى لو كان يمكن ان تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي يلجأ اليها الناس وهو لايتعنت في كبت اعجابه بها بل يقول مثلا :

وهواك عندي كالغناء فانه حسن لدي ثقيله وخفيفه

ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الالحان فيقول :

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل مهدال
أتزهر أغضاً فهاجت بمزهر مثانيه احشاء لطعن واوصال

فهذا كلام من افسح لحسه ولشعوره المجال الى مداه في لحظة من تلك اللحظات التي كان يتناسى فيها أخذه بالزهد كل خشن من قول او عمل .

والنار الثانية هي التي اكتوى بها المعري رضاه واراد ان يكوي بها جميع العالمين وهي الاحتشاد بكل قوى الارادة لخنق الغرائز وكبت المشاعر واجتناب اللذائذ والابتعاد عن كل مايغرى بالاستسلام لمفاتن الحياة :

والموسيقى أجل خطراً من أن نهمل شأنها في هذا الباب فهي مفتاح لكثير من الاخيلة واللذائذ — والشهوات

طربت لقمريتي مربع على غصني ضالة غنتا
بدت لها زهرات الربيع فاحسنتا القول وافتنتا
وتعذر نفسك عن الحنين وتعذل عنك أن حنتا

فهو اذن على تذوقه لها وفهمه لرفعة شأنها مضطر الى أن لايجعلها تكأة الى غيرها من اللذائذ الجسدية الدموية ولا مغريا يحرك الغرائز ويذوق الاماني والاحلام .

ولهذا فهو اذا ذكر لك الموسيقى في أي موضع من شعره ونثره فانه لايهمل مطلقاً ان يذكر الى — جنب ذلك بانها ضرب من الندب والنواح أو باعث على الندب والنواح فهو ما يفتاء يردد :

وشبيه صوت النعي اذا قيـــــس بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة أم غنـ — ـت على فرع غصنها الميـاد

ويقـول :

ردي كلامك ما املت مستمعا وهل يمل من الانفاس ترديد
هاجت بكاي اغاني القيان بها كأنها من ذوات الثكل تعديد

ويقـول :

تسمى رشيدا من لؤي بن غالب امير وهل في العالمين رشيد
فان أغاني الليالي نيـاحة ومنهـا بسيط مقتضى ونشيد

وقـوله :

تحالفت الغرائز والمعـاني فكيف توافق المتجسدات
فما بين المقـابر نادبات وما بين الشروب مغردات

او هو على الاقل يذكرك في تلك اللحظة التي تنعم فيها بالموسيقى ان الاحداث والفواجع ملء برديك فلا تذهب مع تنعمك الى مداه

هي النفس عنّاها من الدهر فاجع برزء وغنّاها لتطرب ساجع

فنفسك يابن آدم لاتزيد على انها العوبة بيد الحياة ماتغنيها السواجع الا لتنعيها الفواجع رحمك الله أبا العلاء فلقد انشأك الله عقلا جباراً لايقنع الا بان يحيط بجميع ماحوله وشعوراً عميقاً زاخراً يتقد كالكوكب الخالد ولا يسطع كالهشيم المحترق رحمة سابغة وسعت العالمين والسلام

فخري البارودي